العالم المسرحي والسينمائي

بين مسرحي الدرام والكوميدي في مصر

لناقد «الرسالة» الفني

لعل من أعجب مايلاحظه المتصل بالمسرح المصري في العشر سنوات الأخيرة اتصالا وثيقا ان المسرح الهزلي — الكوميدي — كان أكثر توفيقا ونجاحا من المسرح الجدي — الدرام — وأقوى على مغالبة الازمات والعقبات التي عرضت في السنوات الاخيرة وأودت بالفرق التمثيلية إلى الدرك الذي وصلت اليه .

وأغرب من هذا وأبعث على العجب أن مسرح الدرام بدأ غنياً فافتقر ، بينما أن مسرح الكوميدي بدأ فقيراً ثم اغتنى . وما نعني هنا هذا العرض الزائل وهذه الدريهمات التي تأتي بها الظروف أحيانا ، وتذهب بها الظروف أحيانا أخرى ، وانما نعني في حديثنا عن الفقر والغنى الناحية المعنوية والفنية لكل منهما . فمنذ عشر سنوات أو قبل ذلك بقليل ، كانت فرقتا الأستاذ جورج أبيض والأستاذ عبد الرحمن رشدي تنهضان بعبء العمل المسرحي كلٌ كفأ ما يكون ، وتغذيان جمهورهما بانفس الروايات المترجمة أو المؤلفة على السواء ، وكانت الفرقتان تضمان مجموعة من خيرة ممثلي وممثلات المسرح في مصر ، وكان الاقبال على حفلاتهما ليس بالقليل . وحلت الفرقتان لأسباب عارضة لسنا بصدد تفصيلها هنا وتألفت على انقاضهما فرقة رمسيس التي اجتمع لها من أسباب القوة والبروز ومقدمات النجاح والنصر مالم يجتمع لفرقة قبلها ، فالمال جم وفير ، وثمت مسرح خاص أنيق ، ونخبة من أحسن الممثلين والممثلات ، ومجموعة منتقاة من أجود الروايات ، وقبل كل هذا الرغبة القوية في العمل الفني الحق ، والارادة التي لا ينقصها الحزم ، ونشطت الصحافة اذ أحست هذه الجهود الجبارة تبذل في سبيل الفن فأفردت صحفنا اليومية للحديث عن المسرح والتمثيل أبوابا خاصة بل صحائف كاملة ، وكان ذلك حدثا جديداً في عالم الصحافة ، وتفرغ كثير من الأدباء للكتابة عن التمثيل ونظمت لأول مرة في تاريخ المسرح حركة النقد تنظيما واسع النطاق ، وقصارى القول ان مسرح الدرام في ذلك الوقت كان غنيا بل طائل الثراء بالجهود التي تضافرت لانعاشه وبعثه وخدمته الخدمة الحقة التي تعلي من شأنه وترفعه الى المنزلة التي هو جدير بها ، ولم يكن ينقصه اقبال الجمهور الذي تدفق وحيا القائمين بهذه النهضة المباركة تحية طيبة مباركة .

كان ذلك منذ عشر سنوات ، أي في مستهل افتتاح مسرح رمسيس الذي يؤرخ ظهوره عهدا جديدا في تاريخ المسرح في مصر ، ما في ذلك شك ، ولا من الاعتراف به بد . ولكن انظر اليوم اين نحن واين مسرح الدرام ، واين تلك النهضة التي بدأت قوية وسطعت كالشهاب اللامع . ثم اذا بجذوتها تنطفىء على الايام رويداً رويدا ، وتنحدر من قمتها الباذخة سنة بعد أخرى حتى اذا هي اليوم في أسفل الوادي ، بل في هوة سحيقة وأسفاه ، وفي حال تدمع لها العين ويدمى لها الفؤاد .

هاهي فرقتا الجدية تغلق دورها وتعلن فشلها ، ويتفرق أفرادها يطرقون الابواب كبائس في يوم عيد يرى الناس في زينتهم ونعيمهم وهو مملق مسكين ، كده الضنى وأجهدته الحياة ، واسلمته صروف الايام الى المسغبة والعوز ، ويخفض جناح الذل من الحاجة ويستمدي على مطالب العيش وقوت الأهل إحسان المحسنين وبر الكرام العاطفين

كان مسرح الدرام كما رأيت ، وحاله اليوم كما ترى ، كان غنيا وافر الغنى ، فأصبح فقيرا شديد الفقر ، كان رفيع العماد شامخ الذرى فاذا هو اليوم انقاض وخرائب موحشة .

لكن مسرح الكوميدي حاله غير هذه الحال ، ولشد ما يختلف في نشأته وكيانه وتطوره عن مسرح الدرام ، فبينما كان هذا قويا زاخرا بفرقه العاملة وبمن تضم من أفراد مشهود لهم بالمقدرة والكفاءة ، كان الآخر لا يزال في مستهل حياته ومطلع فتوته يلجأ الى دور صغيرة ضيقة من التجاوز في التعبير أن نسميها مسارح ، وكان

لايضم الا قلائل جمعتهم وحدة الغاية والميول فتكاتفوا على العمل سويا فى النوع الذى وجدوا من أنفسهم ميلا اليه ومن استعدادهم كفاءة له . وأخرجت بعض روايات جورج فيدو المؤلف الفرنسى الذائع الذكر فلقيت نجاحا كبيرا وبدأ مسرح الكوميدى ينتعش قليلا قليلا ولكنه لم يحرز التوفيق كله الا فى فرقة مسرح الاجبسيانه — بر تانيا اليوم — حيث بدأت الروايات الاستعراضية الكبرى والتى كانت تمثل كل منها الاسابيع والاشهر المتوالية بنجاح عظيم يفوق الحد ، والجمهور تكتظ بأفراده كل يوم مقاعد الملعب حتى ليس ثمت موضعا لقدم .

على أن مسرح الكوميدى طحنته الازمة وحدت من جهوده غير أنه قاومها طويلا وثبت للعاصفة المجتاحة . والفرقة الوحيدة التى استمرت الى اليوم على العمل هى فرقة الكوميدى ، كما أننا نجد فرقة ثانية للكوميدى تؤلف فى هذا الموسم وتلقى نجاحا كبيرا فى الوقت الذى تغلق فيه فرق الدرام أبوابها وتنصرف عنها الجماهير . وبينا نسمع صرخات مديرى الفرق الدرام يستغيثون بلجنة تشجيع التمثيل ويطلبون منها المدد والمعونة ، نجد مديرى فرق الكوميدى يعتمدون على مخض جهودهم وعملهم ، فان مدتهم اللجنة ببعض المال فلا بأس ، وان عطلت عنهم معونتها فلا بأس أيضا ، وهم مستمرون على بذل مافى وسعهم لاكتساب رضى الجمهور وضمان اقباله وتشجيعه

أليس هذا الموقف جديرا بالتأمل والدرس ؟ قل فى تعليله ما تشاء ، وقل فى أسبابه وبواعثه ما تقول ، ولكن تبقى بعد ذلك الحقيقة الواقعة الملموسة لا غناء فى تجاهلها ولا نفع يرجى فى التغاضى عنها وعما فى طيها من معان هى خليقة بكثير من العناية والفحص . فاذا أبيت الا أن أدلى بدلوى فى الدلاء . وإلا أن اذكر لك مرجع هذا فى رأيى فلعلى لا أكون قد جازفت الحق والواقع اذا قلت أن مسرح الدرام لم يعمل على التقرب من الجمهور ولا على أن يدوم له الطعام الذى يسيغه ذوقه ، بينما عمل مسرح الكوميدى على هذا فنجح من حيث أخفق الاول

غلبت على مسرح الدرام الروايات الافرنجية المترجمة وهى بشخصياتها وجوها ، وعادات أبطالها وأخلاقهم ، وبيئتهم وتصرفاتهم وكل مايتصل بهم بعيدة عن ذوق الجمهور المصرى ، وقد تكون بعيدة أيضا عن فهمه وإدراكه ، غريبة عنه بكل مافيها ومن فيها ، ولكل شعب ذوقه الخاص ولذلك كان لكل أمة مسرحها الخاص ، والمسرح فى كل بلد يمثل الوسط الذى يعيش ويترعرع فيه ، ولا تكاد تقحم المسرح الفرنسى فى انجلترا ، ولا المسرح الانجليزى فى فرنسا ، وليست كل الروايات الصالحة للعرض هنا ، تصلح للعرض هناك ، وقد تجد نماذج تنال النجاح والتوفيق فى البلدين ولكنها الاستثناء الذى يثبت القاعدة ولا ينفيها . لهذا فشل مسرح الدرام لان الرواية المترجمة غلبت عليه .

والحال على النقيض فى مسرح الكوميدى حيث لاتجد الا الرواية المصرية ، والا الشخصيات المصرية الصميمة التى تعرفها وتحبها وتعيش معها فى جوليس بالغريب عليك وفى بيئة أنت بها جد عليم . وقد افلح مسرح الكوميدى فى خلق نماذج من الشخصيات المصرية قد تبدو عليها سمة التجسيم والتهويل ، أو هى نماذج « كاريكاتورية » ولكنها مصرية قبل كل شىء ، ثم هذه هى صنعة الفن الكوميدى اولا وآخرا ، وعرف مسرح الكوميدى اجادة من بعض الممثلين لم يبلغها اندادهم فى مسرح الدرام ، لان الاول عرف التخصيص ، واعنى ان من بين ممثليه أفرادا تخصصوا فى اخراج شخصيات معينة فاجادوها بحكم المران والاستمرار ، وتوغلوا فى صميمها فأخرجوا منها الطريف المبتكر . وهذه « المصرية » التى غلبت على مسرح الكوميدى كانت العامل الاول فى نجاحه .

على أن شعب هذا الوادى ، شعب سهل لين ، شعب بفطرته للمرح يعب فيه بنهم وقابلية ، ولعل فى هذا أيضا بعض السبب فى اخفاق مسرح الدرام ونجاح مسرح الكوميدى . ومن الخير أن نعرف للمسرحين ما أديا من رسالة الفن وأن نذكر لكليهما ما كان له من إحسان أو اساءة ، فالمسرح المصرى يقف اليوم بمجموعه فى مفترق الطرق ، فأما الى الصدر وأما الى القبر ، ومن أوجب الواجبات فى هذه الفترة الدقيقة من حياة المسرح أن نذكر للمحسن احسانه وأن نعدد للمسىء نقصه وعيوبه ، فيمضى الاول فى طريقه مجداً عاملا ، ويصلح الثانى من نفسه ان أراد الا يتخلف عن زميله أو يدرك غباره .

محمد عبد الحميد حماد